أوليات بناء النظام الأخلاقي في المجتمع في ضوء الكتاب والسنة

The Priorities in Building a Moral System in a Society According to Quran and Sunnah

*عمر بن فضل القدوس
** د. عبد القادر هارون

Abstract

This research concentrates on ethical senses and moral behaviors and why morality shall be our priority to build a stronger society. This study will clarify the priorities of Sharia in working with priorities. And how Islamic Sharia preferred act on other, without there being a conflict between the Qur'an and the Sunnah. This study will show how effective cultures like modernism, capitalism and socialism hit or marginalize our basic moral principles, sometimes because of ignorance or by compulsion.

There are many differences between Muslim societies and western societies. In our societies, powerful media and economy make an impact on poor societies and on their culture through their products and media even if they do not get directly affected by their culture and customs.

Therefore, the study will explore the possible ways to make moral behaviors as basic principles or customs for a society, based on the most appropriate solutions.

Key words: priorities, moral system, moralities, society

التمهيد:

تكمن أهمية تعريف الألفاظ والكلمات بأن فقدانها من أهم الأسباب التي أدت وتؤدي إلى تفرقة الصف الواحد في المجتمع. لذا فإن معرفة حدود الألفاظ ومدلولاتها طِبقاً لكل زمن وكل عُرف أو عادة، من أولويات الدعاة لدعوة الناس حسب صنعتهم وأعمالهم ووِفق ما يميلون إليه قال تعالى: ﴿ **وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم**﴾[1]، فكان هذا هو دأب الرسل والأنبياء والصالحين، حتى أن معجزاتهم كانت تأتي حسب ما امتهن قومهم مهنة وبرعوا بها من الحِرف والفنون. وأيضاً لأهمية العرف العام أو عادات المجتمع كانت أيضاً من مصادر التشريع في الدين الإسلامي، في الإستحسان والعرف وسد الذرائع والمصالح المرسلة.

والأهمية الثانية في معرفة معاني الكلمات، بأنه يسهل على الداعي تحبيب الناس وتشويقهم من خلال معرفة ما يحتاجه العامة من الناس وما ينقصهم، من اعوجاج في الادب أو قصر في الفكر أو ضعف في الخلق. وبذلك يسهل توضيح نقاوة وصفاوة فطرة الطبيعة الكونية والتي هي في الأصل متماشية مع فطرة الشريعة الإسلامية. وهذا ما نسميه مراعاة الحال بالتدرج.

* باحث دكتوراه في الدعوة والثقافة الإسلامية، بكلية أصول الدين. بالجامعة الاسلامية العالمية بإسلام آباد.
**أستاذ مساعد في قسم الدعوة والثقافة الإسلامية، بكلية أصول الدين. بالجامعة الاسلامية العالمية بإسلام آباد.

وثالث أهميتها أنه يسهل على الداعي معرفة أولويات السنن النبوية ومطابقتها للواقع الحديث وكيفية التدرج بها عند الناس.

النقطة الأولى: تعريف الأولويات لغة واصطلاحا

الأولويات لغة: الأولويات جمع ومفردها أولي أو أولى من أول. والأوْل بسكون الواو بمعنى الرجوع. الأول: الرجوع. آلَ الشيء يؤول أَوْلَا ومآلا: رجع. وأَوْلَ إليه الشيء: رجعه. "وألت عن الشيء: ارتدت"[2]. ومنهم من قال بالولي،[3] والأوَّل بفتح الواو مع الشدة بمعنى الأسبقية في الأمر، وهذا الذي نعنيه.

وباختصار يمكن القول إن الاستعمال اللغوي لمصطلح الأولويات ينحصر في معنى الرجوع. فآل علينا ولياً أو آل الملك جماعته وأتباعه لأنه بهم يرجع أو عليهم يرجع. وأما ما يتعلق بسلسلة النسب في آل محمد و آل البيت فإن تسلسل النسب يرجع إلى الأقدم نسباً. "وقد تكون الإيلة الأقرباء الذين يؤول إليهم في النسب"[4] ويؤول بمعنى يُرجع. ويقول الإمام الأصفهاني: "هو الذي يترتب عليه غيره، فأولى بمعنى أخرى في الأصل"[5].

وباختصار يمكن القول إن الاستعمال اللغوي لمصطلح الأولويات ينحصر في المعاني التالية: الأحق والأجدر والأرجح و الأقرب. وقد قمنا باستقراء لكلمة "أولى" في القرآن الكريم فوجدنا أنها قد تكررت في سبع آيات، تضمنت المعاني السابقة الذكر

الأولويات اصطلاحاً:

ومن المعلوم أنه ليس شرطاً أن يكون القرآن أو السنة قد حدد ذكر الأولويات صراحة دون السياق بالمعنى كما في سورة عبس، عاتب الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ باهتمامه بالمعرضين عن المقبلين عليه. وأنه في زمن الشهوة والغفلة قل الإهتمام بالأولويات، وتفرقوا شتاتاً يبحثون عن الراحة والملذات وعن التهرب من المسؤوليات. رأيت أن التعبير اللغوي الغير منحاز لا يجدي نفعاً. فالأولى والأهم والأجدر والأنفع والأفضل الفاظ ومعان تستخدم حين تتساوى الموازين والمقاييس بفارق طفيف لصالح طرف ما. أما الأحق والأوجب هي تقال حين نفاد الموروث والوقوف على حافة الهاوية أو الموت أو بمعنى أدق إندثار الفضيلة الخلقية.

1- عرّف (القرضاوي) فقه الأولويات بأنه "وضع كل شيء في مرتبته بالعدل، من الأحكام والقيم والأعمال، بناءً على معايير صحيحة يهدي إليها نور الوحي،"[6] فاستعمال لفظ الفقه هنا جاء بمعنى الفهم، أي فهم الأولويات بأن تُرتّب وِفق الأهم.

2- وعرّف (العثماني) فقه الأولويات بأنه: "العلم بفاضل الأعمال ومفضولها، وحسن التصرف بالبدائل من خير أو شر، وذلك بمعرفة خير الخيرين، وشرّ الشرّين"[7].

فالأولويات: هي تلك القاعدة المبْنيّة على فهم الأنسب والأجدر من الأعمال، ومعرفة فاضل الأعمال ومفضولها، وراجحها ومرجوحها، بناءً على العلم بمراتبها، وبالواقع الذي يتطلبها بغرض تحقيق أهم المصالح بأخف الأضرار، ومعرفة النتائج التي يؤول إليها تطبيق تلك الأعمال.

فالذي أراه هو باختصار التسابق في فعل الخيرات حسب الأحكام الشرعية بما لا يخالف الشرع والعرف وبما يجلب أكبر أو أكثر مصلحة للعباد والبلاد.

النقطة الثانية: تعريف البناء لغة واصطلاحاً:

البناء لغة: نقيض الهدم.[8] بنيت أبني بناءة قال تعالى ﴿**والسماء بنيناها بأيد** . .﴾[9]، وقيل: وضع الشيء على الشيء من أجل التثبيت. وكذلك سمي الإبن بالبني وابن. وسماه بذلك لكونه بناءٌ للأب. فإن الأب هو الذي بناه، وجعله الله بناءً في إيجاده. وقد يقال لمن يكون في عمل شيء أو ملازماً به أو ملازماً له كإبن الطريق أو إبن الطيور. والبناء عند النحاة في اللغة: لزوم آخر الكلمة حركة واحدة مع اختلاف العوامل فيها[10]. والبناء قد يكون بمعنى العزم واليقين بأن الشخص الفلاني بنى امره على.... وقد يكون بمعنى الدخول على الزوجة.

قال الفرزدق[11]: إنَّ الَّذي سَمَكَ السَماءَ بَنى لَنا بَيتاً دَعائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطوَلُ

بَيتاً بَناهُ لَنا المَليكُ وَما بَنى حَكَمُ السَماءُ فَإِنَّهُ لا يُنقَلُ

البناء اصطلاحاً: كلمة بناء موجودة في أكثر من آية في القرآن الكريم. فيقول تعالى ﴿**والشياطين كل بناء وغواص**﴾[12] ويقول تعالى ﴿**الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناءً**﴾[13]. ولكن لم يرد عن الفقهاء تعريف واضح مستقل عن البناء المقصود به الأبنية والتبني إلّا في نطاق التعريف اللغوي. ولكن ذكرت بعض التعاريف عن البناء لدى المعاصرين، منها-:

1- -البناء هي: "فن تشييد البنايات والمنازل المختلفة وتنظيمها لتحصيل منافعها وفوائدها الكثيرة التي منها مثلاً الإطمئنان والراحة والسكن النفسي، والوقاية بواسطتها من حر الصيف الالذع وبرد الشتاء القارس"[14]. وهذا التعريف يركز على أهمية البناء للحصول على مقاصد الشريعة التي شرعت من أجلها.

2- والبناء: "هو ما له أصل وقرار، وأطلق عليه في عرف الناس بناء"[15] وهذا التعريف يشمل الدار والبيت والمنزل والمسجد والحصن والقنطرة والسور والعرصة المبنية والقرية والرصيف وكل ما له اتصال تثبيت أيضا غير جامع لأنه لم يقيد منافعها ومقاصدها.

3- والبناء أيضاً "إتمام العبادة بالنية الأولى أو التحريمة الأولى؛ إذا طرأ عليها خلل لا يوجب التجديد"[16]، أو هو "المضي في الماهية الأولى المبدوء بها إلى نهايتها بعد زوال العارض الطارئ عليها"[17].

من التعاريف اللغوية عموما والإصطلاحي على وجه الخصوص عرف بأنه إنشاء أرضية أو قاعدة بالتدرج يخدم مصلحة معينة، سواء أكانت نظرية أم مادية. فبناء الأفكار من البناء النظري، وهذه من العلوم المهمة لتطبيق المهمات التي تخدم مصلحة أكبر.

أما في العرف العام فإن البناء قد يكون لغوياً نظرياً وقد يكون عملياً على حسب تركيب اللفظ. فالبناء القومي يراد به مؤسسات الحكم الإداري في الدولة أو في المؤسسة أي كانت، أو بناءً على ذلك وهو ما أستند على شيء من الأسباب أو الأوجه يراد به بيان خلاصة القول ومختصره. أما العملي فمثلاً البناء المشترك، فيشترك الجميع في البناء. البناء الدرامي: فيشترك مجموعة لتنظيم أعمال مختلفة لبناء فن تمثيلي أو غرضي معين.

فلكل فن أو مهنة لها تعريف متعلق بهم، حسب تركيبة التعريف. والذي نراه أقرب إلى موضوعنا هو **وضع أسس و قواعد بالترتيب حسب أولويات معينة، لتهيئة الظروف لإنشاء ما يخدم مصلحة أو يدفع مفسدة.**

النقطة الثالثة: تعريف النظام لغة واصطلاحاً:

النظام لغة: كلمة نظَّم أو نظَم بالشدة أو بدونه وضم الشيء إلى بعضه. فيقال نظم اللؤلؤ ينظمه نظاماً. ونظَّمه بمعنى

ألفه وجمعه في سلك فأنتظم. (نظم)" اللؤلؤ جمعه في السلك وبابه ضرب، و (نظمه تنظيما) مثله. ومنه (نظم) الشعر و (نظمه) . و (النظام) الخيط الذي ينظم به اللؤلؤ. و (نظم) من لؤلؤ وهو في الأصل مصدر"[18]. فالنظام جمعه نظم وهي كل خيط ينظم لؤلؤاً و نحوه. وقد يطلق على الطريق والسيرة والهدى ونحوه..[19].

وتأتي كلمة نظم بمعنى "التأليف وضم الشيء إلى شيء آخر"[20]. ونظمه تنظيماً أي إقران الشيء بآخر ينتج نسق معين يُقالُ: نَظْمٌ مِنْ لُؤْلُؤٌ ونظم من النثر أو القصيد. (والنظام) ، بالكسر: (كل خيط ينظم به لؤلؤ ونحوه جمعه نُظُم: (كَكُتُب)، كالقائل (مثل الفريد الذي يجري من النظم ...)

اصطلاحاً: مجموعة من المباديء والتشريعات والأعراف وغيرها من الأمور التي تقوم على حياة الناس وحياة الدولة وتنظم أمورها[21]. وقد يطلق النظام ويراد به معنىً عاماً فيكون أحد المفاهيم العقل الأساسية، ويشمل الترتيب الزماني والمكاني والعددي والسلاسل والعلل والقوانين والغايات والأجناس والأنواع والأحوال الإجتماعية والقيم الأخلاقية والمعايير الجمالية[22]. وقد يطلق النظام ويراد به معنىً معيناً أو خاصاً كنظام العمال ونظام المحامين.[23]

يعرف النظام على أنّه "مجموعة من الأجزاء التي ترتبط مع بعضها وفق علاقة متبادلة تسير على معايير محدّدة لأجل إنتاج هدف معيّن، ويتكوّن النظام من مدخلات، يتم إجراء العمليّات المطلوبة للوصول إلى المخرجات التي تكون ضمن مواصفات معيّنة حُددت مسبقاً"[24].

ولذلك فهو مجموعة من الطرق والعادات والقوانين محفوظة ومدمجة مسبقاً، يحبب ويثاب فاعلها ويستمر عمله بترتيب دون عطل، والذي لا يرغب متابعة النظام فيعاقب طبقاً لنوعية اخلاله له.

النقطة الرابعة: تعريف الأخلاق لغة واصطلاحاً:

الخَلْقُ لغةً أصله: التقدير المستقيم، ويستعمل في إبداع الشّيء من غير أصل ولا احتذاء، قال تعالى: ﴿**خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ**﴾[25]، أي: أبدعهما، بدلالة قوله:﴿**بَدِيعُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ**﴾[26] ، ويستعمل في إيجاد الشيء من الشيء نحو. ﴿**خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ**﴾[27]. و خلق هي بضم الحرف الأول أو فتحها. فبضم الخاء تكون الكلمة إسماً أو وصفاً لسجية[28] أو طبيعة أو جبلة اعتاد عليها الشخص.

الخُلُق وجمعه أخلاق هو "حال النّفس التي تصدر عنها الأفعال والأقوال، سواء كانت خيراً أم شراً، ولا يحتاج الخُلُق إلى روية أو فكر"[29]، والخُلق هو "السجيّة، والدّين، وطبائع النفس الإنسانيّة التي تعكس صورة الإنسان الباطنيّة، والخَلق هو صورة الإنسان الظاهرة"[30].

أما إن كانت الخاء مفتوحاً فهي فعل لحركة كالإيجاد والإنشاء والإبداع، مع أن كلاهما يحتملان اسما أو فعلاً حسب معنى الجملة المراد بيانها.[31] يقول الراغب الأصفهاني والخلق يقال في معنى المخلوق، والخَلْقُ والخُلْقُ في الأصل واحد، كالشِّرب والشُّرب، لكن خصّ الخلق بالهيئات والأشكال والصّور المدركة بالبصر، وخصّ الخلق بالقوى والسّجايا المدركة بالبصيرة.

وقد أتى بمعنى من تخلق من غير خلقه، أي تكلف على غير سجيته وطبعه. قال تعالى: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾. ويقول ابن مسكويه[32] "الخلق حال للنفس داعيةٌ لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية"[33].وقد ذكر ابن مسكويه بعد تعريفه للخلق بأن منها ما هو فطري ومنها ما هو مكتسب. السجية، وهو ما خلق عليه من الطبع، ومنه حديث عائشة رضي الله عنها: كان خلقه القرآن: أي كان متمسكا به، وبآدابه وأوامره ونواهيه، وما يشتمل عليه من المكارم والمحاسن والألطاف.

الخلق اصطلاحاً: المروءة أو السجية الطبيعية. "قال ابن الأعرابي: الخلق: المروءة، والخلق: الدين وفي التنزيل: وإنك لعلى خلق عظيم والجمع أخلاق، لا يكسر على غير ذلك، وفي الحديث: ليس شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق، وحقيقته أنه لصورة الأنسان الباطنة"[34]، وهي نفسه وأوصافها، ومعانيها المختصه بها بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة للعين المجردة.

الخُلق اصطلاحاً هو "هيئة النفس التي تصدر عنها أفعالها بكل سهولة ويسر، وهذه الصورة إما ان تكون أفعالاً محمودة وعندها يكون الخُلق حسناً، أو أفعالاً مذمومة وعندها يكون الخلق سيئاً "[35]، وهذا التعريف تعريف وصفي محدود لحالة معينة دون ربطها بالمصدر الرئيسي.

ويقول أحدهم" هي مجموعة الأقوال والأفعال التي يجب أن تقوم علي أصول وقواعد وفضائل مرتبطة ارتباطا وثيقا بالعقيدة والشريعة الإسلامية من خلال القرآن الكريم وسنة الأكرم ﷺ"[36]. وهذا التعريف أقرب إلى المراد ولكن لا بد من توضيح الأثر أو الغاية المرتبطة بالخلق بكلا نوعيها الخيرية و الشرية ونتائجهما الحتمية أو المصيرية. فالقرآن الكريم أكد أن الخمر والميسر فيها فوائد للناس[37]، لكن أكد أن المصيرية أو ما تؤول إليه الأمور أهم وأولى في العمل أو الأخلاق مقدم على المنفعة الزائلة أو المؤقتة.

هي بالعموم الأخلاق الإسلامية والتي هي جملة من الفضائل دعت إليها الشريعة، يتحلى بها المسلم، فيستقيم سلوكه، أو مجموعة من الرذائل نهت عنها الشريعة، يرتكبها المسلم فينحرف سلوكه. بعضها قلبي كالغبطة والحسد، وبعضها قولي كالصدق والكذب، وبعضها فعلي كإماطة الأذى عن الطريق، أو رميه فيه. وأهم مصدر للأخلاق القرآن و السنة.

المبحث الأول: أولويات النظام الأخلاقي في المجتمع في القرآن الكريم.

القرآن الكريم هو أصل الأخلاق الإسلامية، والإسلام يربط بين القول والعمل والقيم والسلوك. القيم والسلوك يحتملان خيراً أو شراً. فالسلوك الحسن في الإسلام هي الأخلاق. والأخلاق في الإسلام قاسم مشترك على مختلف أوجه الحياة، سياسية واجتماعية وقانونية وتربوية. لذا فإن من المعلوم أن العمل من دون العلم ضياع للطاقات والمدخرات. الأخلاق أو أي موضوع يحتاج إلى معرفة الدواعي و الدوافع لها نظرياً وفكرياً وثم معرفة طرق العمل المناسب، فكان هذا الترتيب النظري أولاً:

المطلب الأول: القواعد القرآنية لتأهيل أولويات النظام الأخلاقي في المجتمع.

القرأن الكريم هو كتاب منزل بالوحي على نبينا الكريم، هذا القرآن الكريم أتى هداية ليس فقط للمسلمين ولا لعموم الناس، إنما لجميع العالمين. ولذا فالخطاب القرآني للناس على عدة مراحل. ذلك أن معرفة الإنسان ومقدار وعيه تسهم في طريقة حياته وتؤثر في أهدافه وتوقعاته وتطلعاته، فالذي لا يعرف إلا حدود قريته أو منطقته ستكون تطلعاته محدودة، أما الذي يفهم الحياة فان تطلعاته ستكون بحجم فهمه. والمتتبع لأسماء السور القرآنية والمواضيع التي تتطرق إليها سوف يلاحظ بوضوح كيف أنها تعمل على صياغة نمط تفكير متقدم ووعيٍ واسع لدى القارئ المتدبر في ذلك، حيث أنها تفتح أمامه آفاقاً للتفكير في الكون والإنسان وعوامل السعادة وأسباب الشقاء وفي الحرب والسلم وفي التاريخ والمسؤولية، وإذا نظرنا إلى أسماء السور في القرآن الكريم فسنجد أنها تلعب دوراً كبيراً في هذا الاتجاه حيث تتحدث عن:

أ. التاريخ كما في السور التالية: آل عمران، يونس، هود، يوسف، إبراهيم، الكهف، الروم،

ب. مظاهر الطبيعة كما في السور التالية: الرعد، النور، الدخان، النجم، الحديد، الفجر، الليل، الضحى، الشمس، الإنسان، الجن.

ج. الأخلاق كما في السور التالية: التوبة، المجادلة، المطففين، الكافرون، الإخلاص.

د. الاقتصاد كما في السور التالية: الأنفال، الزكاة، الأنعام، المائدة.

هـ. أصناف الناس ومعاملاتهم كما في السور التالية: النساء، الأحزاب، المؤمنون، المنافقون، الشورى، الطلاق، التحريم.

و. قضايا الآخرة والعبادات كما في السور التالية: الحج، السجدة. الأعراف، الجاثية، الحشر، الواقعة، الغاشية، القارعة.

ولنأخذ على سبيل المثال ترتيب الأمثال في سورة الغاشية بدأ من الإبل ثم السماء وبعده الجبال ثم الأرض. وكأن القرأن الكريم يقول أنظر إلى الإبل في رفعتها التي أعيتك فإن السماء أرفع منها وأشدها خلقة لأن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون. لذلك نرى أن القرآن الكريم حينما يتخذ المنهج التطبيقي، ويهتم بالتدرج بالأولويات في صلاح الشؤون ومعالجة القصور.

إننا نجد في الطبيعة صلاحاً وفساداً ويساهم الناس يومياً في إصلاحها أو فسادها، إلا أن الفطرة السليمة تدعوا إلى الإصلاح بالسلوك الحسن ويذكر القرآن الكريم بهذه الحقائق سواءً ما يتصل بصلاح الطبيعة أو بطبيعة البشر وهذا ما تذكره الآية القرآنية المباركة ﴿**وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾[38].

المطلب الأول: القواعد القرآنية لتأصيل أولويات النظام الأخلاقي للمجتمع.

المتأمل في آيات القرآن الكريم يجد أنها لم تأت بأوامر مطلقة مجردة عن اعتبار الزمان والمكان والأشخاص، فجميع الأوامر والتوجيهات كانت تأتي مع إشارات واضحة إلى اعتبار أحوال التطبيق، وتقرير البديل الذي يتناسب مع حال المكلّف، وهذا الاعتبار لظروف تطبيق الأوامر الشرعية هو ما يسمى بمراعاة الأولويات، وهو منهج سار عليه القرآن الكريم في معالجة قضايا تقديم الأولى ثم الأهم فالمهم. ومثاله بيّن في المحافظة على الضروريات ثم الانتقال إلى تحقيق الحاجيات فالتحسينيات. وقد جاءت بعض الآيات لتؤصّل مراعاة الأولويات كمبدأ وفكرة عامة دون تخصيص لمسألة عامة وحكم جزئي، وهي كُثر في القرآن الكريم، ولترتيب البيان كان تقسيم المجمل للأولويات كالتالي: 1- الأولويات في المصالح (تقديم خير الخيرين)

2- الأولويات في (تقديم المصلحة على المفسدة).

3- الأولويات في المفاسد (تقديم أخف الضررين).

النقطة الأولى:الأولويات في المصالح (تقديم خير الخيرين)

لاشك بأفضلية تقديم الخير كله خير من اختيار خير الخيرين، وأن الإنسان عليه أن يستفيد ما استطاع إليه سبيلاً من مخلوقات الله في الكون، حتى وإن كان حيواناً ليعلمنا سكننا ولبسنا ومواراةً لسؤاتنا وسيئاتنا. ولنا في الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام خير قدوة لأنهم خير الناس اختارهم رب الناس واصطفاهم لعامة الناس. قال الله تعالى:﴿**عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ** ...﴾[39]. حينما رأى النبي ﷺأولوية هداية الضالين المضلين على أسئلة الصحابة رضوان الله عليهم. وهذه المباديء والأولويات يحددها الرب تبارك وتعالى على سبيل الحصر و القطع، وهي معدودة. مع أن أصل الإنسان واحد في خلقته.

قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرا**﴾[40]. ففي الخلقة والإمكانيات والقدرات والمكتسبات نحن الجنس الإنساني متساوون. ولكن جعل معيار وميزان تتميز وتتفاوت فيه أعمال العباد بأن الأفضلية لمن زادت تقواه، قال تعالى: ﴿**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرِ**﴾[41].

وهناك آيات كثيرة في هذا الصدد منها قوله تعالى:﴿**إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾[42]، فالآية فيها دلالة على أن إخفاء الصدقة أفضل من إظهارها؛ لأنه أبعد عن الرياء، إلا إذا ترتب على الإظهار مصلحة راجحة من اقتداء الناس، فيكون أفضل من هذه الناحية، ثم إنّ الآية عامة في أنّ إخفاء الصدقة أفضل سواء كانت مفروضة أو مندوبة وبذلك يحصل الخير وتكفير السيئات.[43]

﴿**أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ...**﴾[44].

فبالنظر إلى هذين الأيتين نجد أن كلا العملين من الأعمال الخيرة التي يثاب فاعلها ولكن إذا ما قورن بالأفضلية والأولوية والأعلى رتبة ومنزلة فهي ليست أقوى من صدق النيات. وهذا ما ذكرناه في أن الإنسان يثاب على نيته الحسنة وإن لم ينتج، حتى أن الإسلام أثاب صاحب النية الحسنة إن أخطأ، وهذا إن عمل عملاً نتج غير ما يقصده أو خلاف ما خطط له أو توقعه.

النقطة الثانية: الأولويات (تقديم المصلحة على المفسدة)

إن من الشرع والعقل والمنطق أن الإتفاق على أن معاملات الناس قائمة على جلب المصالح والتعاون فيما بينهم، ودفع المضار والسيئات والإتحاد لمن يهدد أو يفسد مصالحهم. والقرآن الكريم والسنة النبوية جاءت لتحقيق المصالح واكتسابها، وللتضييق على المطامع وعلى طرقها.

وهناك عدة شواهد من القرآن الكريم والسنة النبوية على ذلك.

الشاهد الأول قوله تعالى: ﴿ **وَإِنْ كُنتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أو ....إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا**﴾[45].

الشاهد الثاني:قال تعالى:﴿ **وَلا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ**﴾[46]، جاء في سبب نزول هذه الآية "عن كعب ابن عجرة أن رسول الله ﷺ رآه وقمله يتساقط على وجهه، فقال: (لعلك آذاك هوامك)، قال: نعم يا رسول الله، فقال ﷺ: (احلق رأسك، وصم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين، أو انسك بشاة)[47]. فحلق الرأس من محظورات الإحرام، ولكن إذا ما ترتبت المفسدة من مرض وأذى، قدمت المصلحة، وهي حلق الرأس أي الإخلال في ترتيب مناسك الحج، بغرض التيسير ورفع المشقة، ففي هذه الحالة القيام بإبقاء النفس البشرية مع الفدية أولى من المحافظة على المحظور (حلق الشعر) والتمسك بترتيب مناسك الحج.

النقطة الثالثة: الأولويات في المفاسد (ارتكاب أخف الضررين)

في الأصل أن ارتكاب المحظور أو المفسد أو المانع من الخير محرم أو مكروه شرعاً. ولا يحكم به إلا من هم من أصحاب الحِل والعقد الذين لهم في المشورة رأي سديد، ومن هو في الدين إتّباع شديد بالتوحيد، وعن الإبتداع بعيد. قال

تعالى:﴿**إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيم**﴾[48].

ومن الآيات الدالة على ارتكاب أخف الضررين قوله تعالى:﴿**إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْكَاذِبُونَ* مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنْ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾[49]، ذكرت الآية أمرين وهما إما التلفظ بالكفر أو القتل دون ذلك، وكما يقال: أحلاهما مرّ، فكلا الأمرين مفسدة، فأما فوات النفس فمفسدة أعظم من مفسدة التلفظ بالكفر مكرهاً، وهذا ما قرره العلماء، "فإجراء كلمة الكفر على اللسان مفسدة، لكنه جائز بالحكاية والإكراه إذا كان قلب المكره مطمئناً بالإيمان؛ لأن حفظ المهج والأرواح أكمل مصلحة من مفسدة التلفظ بكلمةٍ لا يعتقدها الجنان، وقد نزلت هذه الآية في عمار بن ياسر، فقد أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهاً"[50]. فأخف الضررين التلفظ بالكفر والنجاة من القتل.

فإن تعذر ذلك يكون على الإنسان سعيه والباقي يوكله إلى بارئيه جل وعلى ﴿**وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (39) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (40) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى**﴾ وأن الله لا يكلف الإنسان إلا وسع طاقته. لهذا يقول تعالى: ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ ...**﴾[51].

فالله سبحانه لا يكلف الإنسان فوق طاقته، بل يرغبه ويحثه على فعل الخيرات لنفسه أولاً. يبدأ بها بنفسه خيراً، وهؤلاء هم الفائزون في الدنيا والآخرة. بعدها سبحانه وتعالى يخبر بأن المستطيع أو المقتدر عليه أن يتاجر مع الله سبحانه وتعالى بالتصدق والإنفاق على من هم من بني جنسه، والله سبحانه يضاعفه في الأجر والثواب.

بالنظر إلى الآيتين نرى جلياً أنه في جميع الأحوال الفائدة والمصلحة في عمل الخير هي مصلحة البشر سواءً أتت بطريقة مباشرة أم غير مباشرة.

هذه من حقائق الدين الإسلامي أنه أولى أولوياته لمصلحة الإنسان، والسعي في تنميته وفلاحه، ولكن يحتاج للتفكير والتذكير فإنها تنفع العاقلين والمؤمنين.

المبحث الثاني: أولويات النظام الأخلاقي للمجتمع في السنة النبوية.

الإنسان بنفسه ثنائي التكوين، فله الجانب التكويني والمادي أو الغريزي الذي يشده إلى عالم الحيوان، وجانبه المعنوي الرحماني الذي يذكره بخالقه وبالعناصر السليمة المتمثلة بالفطرة السليمة والعفة السامية. وهذان الجانبان في صراع دائم مستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. ففي سبيل محافظة الإنسان على إنسانيته ومجتمعه دون إفراط أو تفريط، يحتاج إلى نظام أخلاقي متزن يستطيع أن يبقيه في دائرة العدل، حتى يستطيع أداء حق الخلافة على الأرض، وينفذ هذه الأمانة الضخمة التي كُلف بها.

إن انعدام وجود النظام الذي يضبط الغرائز في المجتمع يقوده إلى الظلم الذي يمنع أن تسير الغرائز الإنسانية بشكلها الصحيح، فتختل الموازين، ويتبرأ المجتمع من مسئوليته التي وكّل اليها. ولهذا فإن هناك قواعد نابعة مستخلصة من سنن هدي الكريم ﷺ، أجمعت عليه علماء الإسلام ومفقهيه.

المطلب الأول: القواعد الفكرية لبناء أولويات النظام الأخلاقي للمجتمع في السنة النبوية.

أولويات بناء اخلاقيات المجتمع وعاداته لابد أن تكون نابعة ومستخلصة من مصدرها المعين الذي لا ينضب إلى يوم الدين، وهي كتاب الله وسنة رسوله الكريم وهديه، ذكرنا في الفصل السابق الأدلة من القرآن الكريم. والآن بصدد ذكر

أدلة من هدي النبي ﷺ ما يقوي حجتنا ويفيدنا.

وقبل الإقدام بأي عمل من الأعمال، يأمرنا سبحانه وتعالى بالتفكر والنظر في مخلوقات الله، لا أن نأكل كما تأكل الأنعام ثم تكون النار مثوى لنا والعياذ بالله. أو من الذين زين لهم الشيطان تسويفهم واسرافهم فأحبط الله سائر أعمالهم. بل بالعمل بالأولويات نكون من الذين اهتدوا فزادهم هدى واتاهم الله سبحانه بعدها التقوى، وجعل التقوى عنصراً خلقياً لهم أن اتاهم تقواهم.

النقطة الأولى: أولوية العمل الدائم والأطول نفعاً والأبقى أثراً:

لقد بيّن القرآن الكريم كما وضحت السنة النبوية أن الأعمال عند الله سبحانه وتعالى متفاوتة المراتب، وأن هناك الأفضل والأحب إلى الله سبحانه وتعالى من غيره، ولكن هذا التفاوت ليس عبثاً اعتباطيًا، وإنما هو مبني على معايير وأسس ينبغي أن تراعى، ومنها أن يكون العمل أدوم، أي: أن يداوم عليه فاعله ويواظب عليه، بخلاف العمل الذي يقع منه بعض المرات في بعض الأوقات.

قالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله ﷺ: (خُذوا من العمل ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا)، وكان أحب الأعمال إلى رسول الله ﷺأدومها، وإن قل، وكان إذا صلى صلاة داوم عليها.[52] يقول أبو سلمة: قال الله :﴿ **الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمون**﴾[53].

وإن من أولى الأعمال الأطول نفعًا والأبقى أثرًا، لإن امتداد العمل وبقاءه زمانًا مطلوب ومحبوب عند الله عز وجل، وكلما كان النفع به أطول، كان أفضل وأحب إلى الله. ومن أجل ذلك فُضّلت الصدقة بما يطول النفع به.عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أفضل الصدقات ظل فسطاط في سبيل الله ومنيحة خادم في سبيل الله أو طروقة فحل في سبيل الله).[54]

ومن هنا كان فضل الصدقة الجارية التي يستمر نفعها وأثرها بعد وفاة المتصدق بها، مثل الأوقاف الخيرية التي عرفها المسلمون منذ عصر النبوة، وتميزت الحضارة الإسلامية بسعتها وكثرتها وتنوعها، حتى استوعبت كل جوانب البر ونواحي الخير، مما شمل كل ذوي الحاجات من بني الإنسان بل امتد خيرها إلى الحيوان! وأدل ما كتب عن ذلك في كتاب من روائع حضارتنا وغيرها من الكتب.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له"[55].وغيرها من الأحاديث"[56].

النقطة الثانية: أولوية العمل المتعدّي النفع على العمل القاصر النفع

فالعمل الأكثر نفعًا مفضلٌ على غيره من الأعمال الذي منفعته مقصورة على فئة معينة أو محدودة على شيء معين، وعلى قدر زيادة نفعه للآخرين يكون فضله وأجره عند الله سبحانه وتعالى. فعن عُمر رضي الله عنه أن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، أي الناس أحب إلى الله؟ وأي الأعمال أحب إلى الله؟ فقال رسول الله ﷺ: (أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله سرور تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه دينًا، ....الخ)[57].

ولذا فإن الأحاديث النبوية الشريفة تؤكد على أن الخير المتعدي أثراً، وأكبر نفعاً، هو الذي به يثاب صاحبه في الدنيا كانت أم في الآخرة.وهذا مايؤكده السنة النبوية والقانون والعرف والعقل والمنطق.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "مُعلم الخير يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر"[58]. ومن هنا كان كل عمل يتعلَّق بإصلاح المجتمع ونفعه أقل من العمل المقصور النفع على صاحبه، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة، والصيام، والصدقة؟ قالوا: بلى، قال: إصلاح ذات البين، قال: وفساد ذات البين هي الحالقة)[59]. وسيأتي بيان أهمية صلة الأرحام والقدوة الصالحة في إصلاح المجتمعات التي بدوره يفيد الشخص نفسه ومصالحه قبل غيره.

ومصالح الناس ليست مقتصرة بالدعاءلهم، والسؤال عن ما يحتاجونه وتفقدهم بين الفترة والآخرى. فأي مصلحة ممكنة هي محسوبة عند الله سبحانه الذي لا يضيع أجر من أحسن عملاً ولو كان مثقال ذرة خيراً يره. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (كُلُّ سُلامى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس.. يعدل بين الاثنين صدقةٌ، ويعين الرجل على دابته فيحمل عليها أو يرفع عليها متاعه صدقةٌ، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة يخطوها إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة)[60].

ومن هنا كان فضل الدعوة والعمل الواعي في سبيل الله أعظم أجرًا من الانقطاع إلى العبادة مرات ومرات. وكذلك قرَّر الفقهاء أن المتفرّغ للعبادة لا يأخذ من الزّكاة، بخلاف المتفرغ للعلم، لأن لا رهبانية في الإسلام (الحنبلي)[61]. ولأن تفرُّغ المتعبد لنفسه، وتفرغ طالب العلم لمصلحة الأمة!

وعلى قدر من ينتفع بعلمه ودعوته يكن أجره ومثوبته، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، قال: (من دعا إلى هُدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص من أجورهم شيءٌ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا)[62].

وكذلك جاء فضل عمل الإمام العادل على عبادة غيره عشرات السنين، لأنه في يوم واحد قد يصدر من القرارات ما ينصف آلاف المظلومين أو ملايينهم، ويرد الحق الضائع إلى أهله، ويعيد البسمة إلى شفاه حُرمت منها، وقد يصدر من العقوبات ما يقطع سبيل المجرمين، ويستأصل شأفتهم، أو يفتح لهم باب الهداية والتوبة.

وقد يهيئ للناس من الأسباب، ويفتح لهم من الأبواب: ما يرد الشاردين إلى الله، ويهدي الضالين إلى طريقه، ويعين المنحرفين على الاستقامة، وقد يقيم من المشروعات البناءة والنافعة ما يساعد على إيجاد عمل للعاطلين، وخبز للجائعين، ودواء للمرضى، وبيوت للمشردين، وكفاية للمحتاجين. وهذا ما جعل العلماء الأوائل يقولون: لو كانت لنا دعوة مستجابة لدعوناها للسلطان: "أي: الرئيس أو الحاكم"، فإن الله يُصلح بصلاحه خلقًا كثيرًا.

النقطة الثالثة:أولوية العمل الصالح في أزمنة الفتن والشدائد:

أي في الأزمنة الصعبة التي تمر على الأمة، فالعمل الصالح هنا دليل القوة في الدِّين والصلابة في اليقين والثبات على الحق، كما أن الحاجة إلى صالح الأعمال في هذا الزمن أشد من الحاجة إليه في سائر الأزمان. بل إن العاملين في هذه الأزمنة لهم الأجر الأكبر، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: (يأتي على الناس زمانٌ الصابر فيهم على دينه كالقابض على الجمر)[63].

وعن أبي موسى رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: "إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو، أو قلَّ طعام عيالهم بالمدينة، جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية، فهم مني، وأنا منهم)[64]. قال النووي: "وفي هذا الحديث فضيلة الأشعريين، وفضيلة الإيثار والمواساة، وفضيلة خلط الأزواد في السفر، وفضيلة جمعها في شيء

عند قلتها في الحضر ثم يقسم. والله أعلم"[65]. وهذه الأدلة بيان واضح بأهمية العمل بالأولويات الصالحة خاصة في المواقف الصعبة.

النقطة الرابعة: أولوية عمل القلب على عمل الجوارح:

إن أعمال القلوب الباطنة مفضلة على أعمال الجوارح الظاهرة، لأن الأعمال الظاهرة نفسها لا تقبل عند الله سبحانه وتعالى ما لم يصحبها عمل باطن هو أساس القبول، وهو النية المصاحبة للأعمال، فعن عُمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لامرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله؛ فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها؛ فهجرته إلى ما هاجر إليه)[66].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال: (إن الله عز وجل لا ينظر إلى صوركم، ولا أحسابكم، ولا أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)[67]. ولأن القلب هو حقيقة الإنسان، ومدار صلاحه أو فساده عليه. عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: (... ألا، وإن في الجسد مُضغة، إذا صلحت صلح الجسد كُله، وإذا فسدت فسد الجسد كُله، ألا وهي القلب)[68]. وصلاح القلب أساسه التقوى التي هي وصية الله للأولين والآخرين، وهي أساس الفضائل والخيرات والمكاسب في الدنيا والآخرة، وهي في حقيقتها ولبها أمر قلبي.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : (لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع أحدكم على بيع أخيه، وكونوا عباد الله إخوانًا...الخ)[69].

أي كرَّر ثلاث مرات مع الإشارة الحسية بيده إلى صدره ليثبتها في العقول والأنفس. ولنستحضر دومًا قوله سبحانه وتعالى :﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ *الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ *أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** ﴾[70]، وغير ذلك من الآيات

النقطة الخامسة: اختلاف الأفضل باختلاف الزمان والمكان والحال:

إن الأولوية والأفضلية في كثير من الأمور لا تكون أولوية مطلقة في الزمان والمكان والأشخاص والأحوال وإن تفاوتت؛ بل الغالب أنها تتفاوت بتفاوت المؤثرات الزمانية والبيئية والشخصية، ولهذا أحوال:

أ- أفضل الأعمال الدنيوية:

فقد اختلف علماؤنا: أي هذه الأعمال الدنيوية أفضل وأكثر مثوبة عند الله: الزراعة أم الصناعة أم التجارة؟، والذي دعاهم إلى هذا الاختلاف ما ورد في فضل كل منها:

ففي فضل الزراعة عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ما من مُسلم يغرس غرسًا، أو يزرع زرعًا، فيأكل منه طيرٌ أو إنسان أو بهيمة، إلا كان له به صدقة)[71].

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلةٌ، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل)[72]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من أمسى كالًا من عمل يده أمسى مغفورًا له)[73].

وفي فضل الصناعة: عن المقدام بن معدي كرب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وكان داود لا يأكل إلا من عمل يده)[74].

وفي فضل التجارة عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (التاجر الصدوق الأمين المسلم مع الشهداء يوم القيامة)[75]. وعن أبي حرة قال: سمعت أبا نضرة يقول: (التاجر الصدوق بمنزلة الشهيد عند الله تعالى يوم القيامة)[76].

قال العلماء: لا نفضّل واحدة منهم بإطلاق، بل التفضيل يكون بحسب حاجة المجتمع إليها: فحيث تقل الأقوات ويكون المجتمع في حاجة إلى غذائه اليومي الذي لا عيش له إلا به، تكون الزراعة أفضل من غيرها لحماية الأمة من الجوع وتوفير الأمن الغذائي، وخصوصًا إذا كان في الزراعة بعض المشقة والصعوبة، فالصبر عليها يكون من أفضل الأعمال. والفائدة الأخرى من سرد هذه الأحاديث هو أن حقوق العباد مقدم على حقوق الرب تبارك وتعالى مالم يصاحبه شرك أو ظلم[77]. قا تعالى ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً**﴾[78].

وأما حيث تكثر الأقوات وتتسع دائرة الزراعة، ويحتاج الناس إلى الصناعات المختلفة للاستغناء عن الاستيراد من ناحية، ولتشغيل الأيدي العاملة من ناحية أخرى، ولحماية حرمات الأمة وحدودها – بالنسبة للصناعات الحربية – من ناحية ثالثة، ولتفادي نقص الكفاية الإنتاجية للأمة من ناحية رابعة، فهنا تكون الصناعة أفضل. وأما حين تتوفر الزراعة والصناعة، ويحتاج الناس إلى من ينقل ما تنتجه هذه وتلك من بلد إلى آخر، فهو وسيط جيد بين المنتج والمستهلك، وكذلك عندما يسيطر على السوق تجار جشعون محتكرون ومستغلون لحاجات جماهير الخلق، ومتلاعبون بأسعار السلع، فهنا تكون التجارة أفضل، وخصوصًا إذا كان من الرجال الذين :﴿ **لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ** ﴾[79].

ومن أهم ما تحتاج إليه أمتنا في عصرنا هو التقنيات (التكنولوجيا) المتطورة، وكذلك تطوير مناهجها ونظمها التعليمية بما يعيد إليها مكانتها العالمية يوم كانت لها حضارة متميزة، عميقة الجذور، باسقة الفروع، وأن تستشرف المستقبل وتنظر إليه من خلال ما يطلبه منها الإسلام، وما ينشده أهله، وما يتطلع إليه العالم من المعرفة به عقيدة ونظامًا وحضارة وثقافة.

وإن تحصيل هذه المعارف والتفوق فيها، وفي العلوم الموصلة إليها، وبالتلازم مع تعليم العلوم الشرعية الأساسية من علم التوحيد، وعلم الحلال والحرام، وعلم الفرائض، وغيرها من العلوم قد أصبح فريضة وضرورة، فريضة يوجبها الدّين، وضرورة يحتمها الواقع، وهي في مقدمة الأولويات للأمة اليوم.

ب– أفضل العبادات:

وقد اختلف العلماء في أفضل العبادات بالنسبة للفرد اختلافًا بعيدًا، وتعددت أقوالهم وتباينت، والقول المرجح – والله أعلم – ما ذكره الإمام ابن القيم، "وهو أن ذلك يختلف من شخص إلى آخر، ومن وقت إلى آخر، ومن مكان إلى آخر، ومن حال إلى آخر. فالأفضل في وقت حضور الضيف مثلًا: القيام بحقه، والاشتغال به عن الورد المستحب، وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل. والأفضل في أوقات السَّحر: الاشتغال بالصلاة والدعاء والذكر والاستغفار. والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته: عيادته، وحضور جنازته وتشييعه[80].

والأفضل في وقت نزول النوازل وإيذاء الناس لك: أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم، دون الهرب منهم، فعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺأنه قال: (المؤمن الذي يُخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظم أجرًا من الذي لا يُخالطهم ولا يصبر على أذاهم)[81].

قبل العبادات يجب على المرء أن يتخلى عن الظلم والنجس، فالله سبحانه وتعالى لا يقبل من التي تتصدق من كسب فرجها، فالويل لها لا تتصدقي ولا تزني. ثم من خليت نفسه من ذلك عليه أن يتوجه إلى العبادات. ومن أفضل العبادات مما لا شك فيه الفرائض أولاً، ثم ما كان متعبداً بعمله، كما ذكرنا سابقاً.

النتائج والتوصيات

النتائج:

بعد الانتهاء من هذا المقال وصلت إلى أبرز النتائج والتوصيات كما يلي:

1. إن القرآن الكريم والسنة المطهرة قد اعتنيا عناية فائقة في مسألة الأولويات في النظام الأخلاقي في المجتمع.
2. أهمية العمل بالأولويات لأنه من مقتضيات الشريعة وروحها، والأدلة فيها واضحة المعاني بلا التفاف، ومواقف وأراء العلماء فيها بلا اختلاف.
3. لقد أكدت الأصول الشرعية على أولويات تقديم خير الخيرين، وتقديم المصلحة على المفسدة، وتقديم أخف الضررين
4. كذلك جعلت الأصول الشرعية ميزاناً للمسلم يحدد من خلاله الأولويات ،كمثل العمل المتعدي النفع له الأولوية على العمل القاصر النفع وغير ذلك.

كما أن الباحث قد رأى تقديم توصيات هامة في هذا المقام وهي:

1. أوصي بمزيد من الدراسات التي تتناول الأولويات في النظم الأخلاقية وأصولها وضوابطها مع حاجيات الشعوب المختلفة.
2. أوصي الدعاة بنشر ثقافة الأولويات بين المسلمين كبارا وصغارا، رجالا ونساء حتى يعرفوا أولوياتهم تجاه أنفسهم ومجتمعهم
3. . أوصي المؤسسات التعليمية بغرس مفهوم نظم الأولويات وقيم الأخلاق في نفوس الطلبة منذ نعومة أظفارهم.

الهوامش

[1] – سورة إبراهيم: 4

[2] – لسان العرب. محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: 711هـ). الناشر: دار صادر – بيروت. الطبعة: الثالثة – 1414هـ كلمة أول.

[3] – مجمل اللغة، انظر أبو الحسين أحمد بن فارس (توفي 395هـ)، تحقيق: شهاب الدين أبو عمر، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1994م، د. ط، مادة ولي، ص762.

[4] – المصدر السابق(39/28)

[5] – المفردات في غريب القرآن أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (المتوفى: 502هـ) الناشر: دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت،الطبعة: الأولى – 1412 هـ ص100.

[6] – يوسف القرضاوي، في فقه الأولويات دراسة جديدة في ضوء القرآن والسنة، القاهرة، مكتبة وهبة، ط1، 1995م، ص9.

[7] – سعد الدين العثماني، فقه مراتب الأعمال، مجلة البيان، العدد 97، ص2.

[8] – تاج العروس من جواهر القاموس. محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي. (216/37).

[9] – سورة الذاريات: 47

[10] – الأصفهاني، الراغب حسين (ت425هـ) مفردات ألفاظ القرآن دار القلم، بيروت، حرف الباء، ص147. والرازي، محمد (ت660هـ)، مختار الصحاح، دار الفكر، بيروت، حرف الباء، ص66.

[11] – اسمه همّام بن غالب بن صعصعة، يُكنّى بأبي فراس، ولُقّب بالفرزدق لضخامة وبَجَهُّم وجهه، وتعني هذه الكلمة الرغيف. ولد في البصرة 641م ونشأ فيها، أبوه غالب سيّد بني تميم، وأمه ليلى بنت حابس، أخت الصحابيّ الأقرع بن حابس الذي يُعدّ من سادات العرب في الجاهلية، ترعرع في البادية فأخذ صفات أهلها من قوة الشكيمة، وجلفة الطباع، والتعالي الممزوج بالشرف والأصل والكرم. عاش حياته متنقّلاً بين الخلفاء والأمراء والخلفاء يمدح أحدهم ثم يهجوه، ثم يعود إلى مدحه مرة أخرى، كان شديد الحبّ لآل بيت رسول الله محمد عليه السلام، مجاهراً بحبّهم، قوي العاطفة تجاههم، نظم في هذا الموضوع الكثير من القصائد، ولعل ميميّته في مدح علي بت الحسين هي أفضل مثال يُجسّد هذه العاطفة التي بسببها غضب هشام بن عبد الملك عليه، فأمر بحبس حرّيته ما بين مكة والمدينة.نقلاً عن الشبكة العنكبوتية لموقع موضوع الصفحات(10-5 و 115) (الفرزدق، 1987).

[12] – سورة ص: 37

[13] – سورة غافر:64

[14] – ياسين الغادي. حكم الأبنية بين الشريعة والقانون، مؤتة للبحوث والدراسات، الأردن (11\6)، 371

[15] – البناء وأحكامه في الفقه الإسلامي، دراسة مقارنة، ابراهيم بن محمد بن يوسف الفايز ، رسالة دكتورة، إشراف: عبد العال أحمد عطوة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية،،1985 . ص40.

[16] – الموسوعة الفقهية الكويتية، ج8، ص206.

[17] – المرجع السابق، ج3، ص163.

[18] – مختار الصحاح زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: 666هـ). المحقق: يوسف الشيخ محمد. الناشر: المكتبة العصرية – الدار النموذجية، بيروت – صيدا. الطبعة: الخامسة، 1420هـ / 1999م، صفحة (313). (666هـ)، 1990)

[19] – انظر مجمع مقاييس اللغة و لسان العرب والقاموس المحيط في كلمة نظم.

[20] – تاج العروس من جواهر القاموس لمحمد الحسيني (496/33).

[21] . د/محمد رأفت سعيد. المدخل لدراسة النظم الإسلامية. ط١، جدة دار العلم للطباعة والنشر. 1404هـ 1984،

[22] –جميل صليبا. المعجم الفلسفي،ج2، بيروت ، دار الكتب اللبنانية1973م. ص471

[23] المرجع السابق ج2

[24] – موقع " موضوع" على الرابط https://mawdoo3.com بعنوان تعريف النظام بتاريخ: 2022/04/25

[25] – سورة الأنعام

[26]– سورة البقرة 117

[27] – سورة النساء

[28] – مختار الصحاح زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي. صفحة (95). (666هـ)، 1990)

[29] – مجمع اللغة العربية (2004)، المعجم الوسيط، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، صفحة 252.

[30] – د. عبدالسلام حمود غالب (2013-8-26)، "الأخلاق أهميتها وفوائدها"، www.alukah.net، اطّلع عليه بتاريخ 24-3-2018.

[31] – الحسين بن محمد بن المفضل، أبو القاسم الأصفهاني (أو الأصبهاني) المعروف بالراغب: أديب، من الحكماء العلماء. من أهل (أصبهان) سكن بغداد، واشتهر، حتى كان يقرن بالإمام الغزالي. المتوفى (502). نقلاً عن المكتبة الشاملة عن الأعلام للزركلي. وكتابه بعنوان الذريعة إلى مكارم الشريعة.(96).

[32] – أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه (المتوفى: 421هـ). مؤرخ بحاث، أصله من الري وسكن أصفهان وتوفي بها. اشتغل بالفلسفة والكيمياء والمنطق مدة، ثم أولع بالتاريخ والأدب والإنشاء. وكان قيما على خزانة كتب ابن العميد، ثم كتب عضد الدولة ابن بويه، فلقب بالخازن، ثم اختص ببهاء الدولة البويهي وعظم شأنه عنده.

[33] – تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق. المؤلف: أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه (المتوفى: 421هـ). حققه وشرح غريبه: ابن الخطيب. الناشر: مكتبة الثقافة الدينية ص 41.

[34] – تاج العروس من جواهر القاموس لمحمد عبدالرزاق الحسيني (251/25)

[35] – عبدالسلام حمود غالب (2013-8-26)، "الأخلاق أهميتها وفوائدها"، www.alukah.net، اطّلع عليه بتاريخ 24-3-2018.

[36] – مكارم الأخلاق لمن أراد الخلاق، أنور بن أهل الله بن أنوار، (6)

[37] – سورة البقرة: 219

[38] – سورة الأعراف 56).

[39] –سورة عبس

[40] –سورة لحجرات 13

[41] – سورة فاطر 32

[42] – سورة البقرة271

[43] – تفسير ابن كثير لهذه الأية بتصرف.

[44] – سور التوبة 9

[45] –سورة النساء 43

[46] – سورة البقرة 197

[47] صحيح البخاري، أبواب الحصر(3\10).

[48] – سورة البقرة 173

[49] – سورة النحل 105

[50] –تفسير القرطبي(14\348).

[51]– سورة التغابن 16

[52] – صحيح البخاري. كتاب الإيمان. رقم الحديث 6465

[53] – سورة المعارج: 23

[54] – أخرجه الترمذي في سننه برقم 1727 ، وحسَّن إسناده الألباني في صحيح الجامع برقم 1109

[55]– صحيح مسلم رقم الحديث 4310

[56] – انظر صحيح ابن ماجه. حاشية السندي على ابن ماجه. كتاب المقدمة، باب ثواب معلم الناس الخير. ص 106. رقم الحديث242.

[57] – أخرجه الطبراني في المعجم الصغير، رقم الحديث 861، وصحح الألباني إسناده في السلسلة الصحيحة برقم 906.

[58] – أخرجه البزار في مسنده حديث 169، وصحح الألباني إسناده في الصحيحة حديث رقم 3024.

[59] – أخرجه أحمد في المسند برقم 27508، وصحح الألباني إسناده في صحيح الجامع برقم 2595.

[60] –صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من أخذ بالركاب ونحوه رقم الحديث 2856

[61] – انظر: الآداب الشرعية، الآداب الشرعية والمنح المرعية. المؤلف: محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج، أبو عبد الله، شمس الدين المقدسي الراميني ثم الصالحي الحنبلي (المتوفى: 763هـ). الناشر: عالم الكتب "2/ 35".

[62] – صحيح مسلم. كتاب العلم. باب من سن حسنة أو سئية أو من دعا إلى هدى أو ضلالة. الجزء الرابع صفحة 2060.

[63] – أخرجه الترمذي في كتابه صحيح سنن الترمذي. حديث رقم "2260" وصحح الألباني إسناده في السلسلة الصحيحة حديث رقم "957".

[64] – متفق عليه.

[65] – شرح النووي على صحيح مسلم.

[66] متفق عليه

[67] – صحيح مسلم 6707.

[68] – متفق عليه

[69] صحيح مسلم 6706.

[70] – سورة الأنفال 2-4

[71] – متفق عليه.

[72] –أخرجه أحمد في المسند، ح "12981" وصحح الألباني إسناده في صحيح الجامع برقم "1424".

[73] – أخرجه الطبراني في المعجم الكبير برقم "17019" وصحح الألباني إسناده في صحيح الجامع "5546".

[74] – أخرجه البخاري، حديث رقم "2072".

[75] – أخرجه الترمذي في سننه برقم "1209"، وقال الألباني: صحيح لغيره، في صحيح الترغيب والترهيب "1782".

[76] – مصنف ابن أبي شيبة "4/ 555"، برقم "23088".

[77] – الظلم: تقديم حق على حق الغير من دون وجه حق. هذا هو الأولويات في صدد دراسته والبحث عنه.

[78] –سورة النساء 126.

[79] – سورة النور: 37

[80] – مدارج السالكين "1/ 89، 88" بتصرف يسير، وقد سبق ذكره في الفصل الثالث: القاعدة الثالثة من قواعد تفاضل الأعمال "تقديم وظائف الأوقات والأحوال في الأوقات والأحوال التي شرعت فيها على غيرها من العبادات".

[81] – أخرجه أحمد في المسند برقم "5022"، وصحح الألباني إسناده في السلسلة الصحيحة برقم "939".